



كلية : الآداب

القسم او الفرع : قسم علم الاجتماع

المرحلة: الاولى

أستاذ المادة : م. عمر جاسم محمد

اسم المادة باللغة العربية : اسس علم الانسان

اسم المادة باللغة الإنجليزية : Foundations of Anthropology

اسم المحاضرة السادسة باللغة العربية: الأنثروبولوجيا الاجتماعية

اسم المحاضرة السادسة باللغة الإنجليزية : Sociology Anthropology

محتوى المحاضرة السادسة

...

الأنثروبولوجيا الاجتماعية

Sociology Anthropology

أولاً-تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

ثانياً-نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية وتطورها

ثالثاً-أهداف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

1-تحديد نماذج للأبنية الاجتماعية

2-تحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعية

3-تحديد عمليات التغيير الاجتماعي

أولاً-تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

تعرف الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها : دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات. (بريتشارد، ١٩٧٥، ص ١٣)

ولذلك، فمن الضروري في دراسة الإنسان وأعماله، أن نميز بين عبارة " ثقافة " وعبارة " مجتمع " المترافقان لها. فالثقافة - كما في تعريفاتها - هي طريقة حياة شعب ما، أما المجتمع فهو تكتل منظم لعدد من الأفراد، يتفاعلون فيما بينهم ويتعاونون طريقة حياة مغينة .. وبعبارة أبسط : المجتمع مؤلف من أنس، وطريقة سلوكهم هي ثقافتهم.

وهنا تعدّ تصنيفات المؤسسات والأنظمة الاجتماعية، أدوات نافعة للأغراض الوصفية، كما أن التعميمات بالنسبة للعلاقات المتداخلة والمتبادلة بين النماذج والمؤسسات، تساعد في الاهتمام إلى نوع من النظام وسط أوضاع تبدو مشوشاً وغامضاً، وفي زيادة الفهم الحقيقي للعمليات الاجتماعية. وفي الوقت ذاته، يعتمد هذا الفهم على دراسة النسق الكلي الذي يؤلف النظام الاجتماعي جزءاً منه. ويضم هذا النسق ثلاثة عناصر مميزة، هي : شخصيات الأفراد الذين يؤلفون المجتمع، والبيئة الطبيعية التي يتبعن على المجتمع أن يكيف حياته وثقافته معها، وأخيراً المجموعة الكلمة من الوسائل الفنية اللازمة للمعيشة، التي تضمن استمرار بقاء المجتمع عن طريق نقلها من جيل إلى جيل. (لينتون، ١٩٦٤، ص ٣٥٧)

ولكن، هل يمكن أن نفصل على هذا الشكل بين الإنسان كحيوان اجتماعي، والإنسان كمخلوق ذي ثقافة؟ أليس السلوك الاجتماعي في الواقع سلوكاً ثقافياً؟ ألم نر أن الحقيقة الكبرى في دراسة الإنسان ، هي الإنسان نفسه أكثر مما هي مثل الإنسان أو نظمه، أو حتى الأشياء المادية التي نجمت عن ارتباطه بتكتلات نسمتها " مجتمعات "؟

فالنظام الاجتماعي إذن، هو التعبير التقني الأنثروبولوجي الذي يدلّ على المظهر الأساسي في حياة الجماعة الإنسانية، وهو يشمل النظم التي تؤلف إطاراً لأنواع السلوك جميعها، سواء كان فردياً أو اجتماعياً. (هرسكوفيتش، ١٩٧٤، ص ٢١-٢٠)

إن اللغة والحياة الاجتماعية المنظمة، زودتا الإنسان بأدوات لنقل الثقافات، مهما بلغت من التعقيد، والمحافظة على تراصها بصورة غير إيجابية. وعملت الحياة الاجتماعية أيضاً على جعل الإنسان في حاجة إلى إرث اجتماعي، يفوق في ثروته ما تحتاج إليه الحيوانات. وتمت المحافظة على المجتمعات البشرية، بتدريب أجيال متلاحقة من الأفراد .. ولذا كانت المجتمعات، هي نفسها، حصيلة الثقافة. (لينتون، ١٩٦٤، ص ١١٩)

وبناء على ذلك، تهدف دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تحديد العلاقات المتبادلة بين هذه النظم، سواء في المجتمعات القديمة التي تدرس من خلال آثارها المادية والفكرية، أو في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، التي تدرس من خلال الملاحظة المباشرة لمنجزاتها وتفاعلاتها الخاصة وال العامة.

ثانياً-نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية وتطورها

يعدّ اهتمام الأنثروبولوجيا عامة، والأنثروبولوجيا الاجتماعية خاصة، بدراسة المجتمعات الإنسانية، وعلى المستويات الحضارية كافة، منطلاقاً أساسياً من فلسفة علم الأنثروبولوجيا وأهدافها، ولا سيما دراسة أساليب حياة المجتمعات المحلية، إلى جانب دراسات ما قبل التاريخ، ودراسات

اللغات واللهجات المحلية .. وهذا ما يميز الأنثروبولوجيا من العلوم الإنسانية / الاجتماعية الأخرى، ولا سيما علم الاجتماع.

ويوصف علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنه علم حديث العهد، لا بل من أكثر العلوم الاجتماعية حداثة فقد استخدم مصطلح (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) للمرة الأولى في عام ١٩٨٠ / عندما كرمت جامعة ليفربول في بريطانيا السيد / جيمس فريزر / منحته لقب الاستاذ.

وممّا يدل على حداثة هذا العلم الذي يدرس الجانب الطبيعي / التطبيقي، من البنى الاجتماعية، ذلك الاختلاف الذي ما يزال قائماً بين علماء الاجتماع حول هذه التسمية : (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) ولكن على الرغم من حداثة هذا العلم، فقد مر بمراحل متعددة أسهمت في نشوئه وتطوره واستكمال عناصره إلى حد بعيد، بدءاً من القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر .

١- القرن الثامن عشر :

تعد الدراسات التي أجريت في القرن الثامن عشر حول الأبنية الاجتماعية، وأنساق القيم السائدة فيها، من أهم الدراسات التي مهدت لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية وكان في مقدمتها كتاب " روح القوانين " الذي ألفه / مونتسيكو / عالم الاجتماع الفرنسي، والذي أكد فيه أن المجتمع البشري وما يحيط به، يتكون من مجموع نظم مترابطة، بحيث لا يمكن فهم القوانين عند أي شعب من الشعوب، إلا إذا درست العلاقات التي تحكم هذا النظام أو ذاك، بما فيها البنية والحياة الاقتصادية، والسكان والمعتقدات والأخلاق السائدة، حيث ميز الفيلسوف الفرنسي / مونتسيكو / بين البناء الاجتماعي والنظام القيمي، على الرغم من العلاقة بينهما. وأوضح أن المجتمع ذاته وما يحيط به، يتكون من نظم يرتبط بعضها بعض ارتباطاً وظيفياً، وبالتالي لا يمكن فهم القانون العام لدى أي شعب من الشعوب، إلا إذا درسنا العلاقات بين هذه القوانين كلها، ومن ثم دراسة علاقة تلك القوانين بالبيئة الطبيعية والحياة الاقتصادية، وعدد السكان والأعراف والتقاليد السائدة أو التي كانت سائدة . (الجباوي، ١٩٨٢ ص ١٠١)

ولكن / سان سيمون / عالم الاجتماع الفرنسي أيضاً، يعد أول من رأى ضرورة إنشاء علم للمجتمع، واقتراح إنشاء علم وضعى للعلاقات الاجتماعية. واعتبر أن مهمة علماء الاجتماع لا تقتصر على دراسة المفاهيم والتصورات الاجتماعية فحسب، وإنما يجب أن تشمل تحليل الواقع والحقائق التي تعززها .

وإذا كان / سيمون / لم يقصد تماماً إنشاء علم / الأنثروبولوجيا الاجتماعية / وإنما قصد إيجاد علم خاص يدرس النظم الاجتماعية وعلاقاتها دراسة موضوعية، فإن ذلك تحقق فعلاً بجهود تلميذه / أوغست كونت /

هذا في فرنسا .. أما في إنكلترا، فقد ظهرت دراسات تمهدية لعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولا سيما أبحاث / دافيد هيوم وآدم سميث / حيث نظر إلى كل مجتمع إنساني على أنه نسق طبيعي ينشأ من الطبيعة البشرية، وليس عن طريق التعاقد. ولذلك انتشرت مفاهيم جديدة، مثل : الأخلاق الطبيعية والدين الطبيعي. واعتبر المجتمع (أي مجتمع إنساني) ظاهرة طبيعية، لا بد من استخدام المنهج التجريبى والاستقرائي، عند دراسته بدلاً من المناهج العقلية / الفلسفية.

وظهرت في هذه المرحلة التمهيدية بوادر الاهتمام بالمجتمع البشري، اعتماداً على رحلات الاستكشاف للآثار والمتحاشف والمصادر المختلفة. وقد نظر إلى الإنسان البشري على أنه متوازن في مجتمعه، وهمجي في سلوكياته .. يتناقض كلية مع إنسان المجتمع المتبدن والمتقدّم. وخير مثال على ذلك، ما كتبه / جون لوك / عن الهنود الحمر في أمريكا، حيث أصدر حكماماً عامة وغير دقيقة، عن هذه الشعوب البشريّة.

والخلاصة، إن علماء القرن الثامن عشر وفلسفته، مهما تكن آراؤهم، مهدوا بشكل أساسي لظهور علم دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وذلك نتيجة لاهتمامهم بالنظم الاجتماعية من جهة، واعتبارهم المجتمعات الإنسانية أنساقاً طبيعية، في إطار (الطبيعة البشرية) من جهة أخرى يجب أن تدرس من خلال المناهج التجريبية، على الرغم من أن دراسات هؤلاء المعنيين كانت بعيدة عن طبيعة هذه المناهج، وكانت تعتمد على التحليل الصوري (الشكلي).

٢- القرن التاسع عشر:

بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فترة نشوء الأنثروبولوجيا كعلم معترف به .. وقد أسهם في ذلك صدور العديد من الدراسات والكتب التي بحثت في هذا العلم وحدّدت معالمه الأساسية، ولا سيما مؤلفات كل من (تايلور وماكلينان) في إنكلترا، و (بافوفين) في سويسرا، حيث اهتم هؤلاء بجمع المعلومات عن الشعوب البشريّة، وابرزووها بصورة منهاجية منظمة، من خلال دراسة النظم الاجتماعية، وفي حدود الأبنية الاجتماعية لهذه المجتمعات، وليس في حدود الفلسفة وعلم النفس. فوضّعوا بذلك أساس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

فقد فسر / ماكلينان / مثلاً : تحريم زواج المحارم في بعض هذه المجتمعات البشريّة (نظام الزواج الأكسوجامي)، استناداً إلى ظواهر اجتماعية أو عقائد خاصة بتلك المجتمعات، رافضاً إرجاعه إلى أسباب بيولوجية أو نفسية. كما أن طريقة الزواج التي تتمثل في عملية خطف العروس، لم تستند إلى نظريات نفسية أو فلسفية، وإنما ترجع إلى عادات متربّبة من الماضي في ممارسة السبي والاغتصاب. (لطفي، ١٩٧٩ ، ٨٢)

ولم يكن رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في القرن التاسع عشر، يستخدمون الدراسات الميدانية، بل اعتمدوا على أقوال الرحالة والمستكشفين ورجال الإدارة . ولذلك، تُعد هذه المرحلة فترة نشوء هذا العلم، وليس فترة كماله ونضجه، لأن الدراسات الميدانية / التطبيقية تُعد من الركائز الأساسية لتكامل هذا العلم، بطبيعته ومنهجيته.

وقد تميزت هذه المرحلة بظهور مدرستين متداخلتين، هما : النشوية والتطورية. ويعود تداخلهما إلى أن العالم الأنثروبولوجي، أو العالم الاجتماعي عندما يقوم بتفسير عملية التطور في أي نظام اجتماعي، من الماضي إلى الحاضر، لا بد أن يعمد إلى تحديد نشأة هذا النظام، وذلك بالعودة إلى المجتمعات البدائية لدراستها واستخلاص صفاتها وعلاقاتها، باعتبارها تمثل التاريخ المبكر للجنس البشري.

مثال ذلك : (نشأة الأسرة وتطورها) من حيث الإباحية الجنسية، وتعدد الزوجات وصولاً إلى وحدانية الزوجة. وكذلك الانسجام إلى الأم ومن ثم إلى الأب. وهذه العودة إلى الشعوب البدائية، لا تقتصر على الأنثروبولوجيا فحسب، بل تشمل سائر فروع المعرفة الخاصة بالعلوم الإنسانية.

وقد تأثر رواد هذه المدرسة، وفي مقدمتهم / إدوارد تايلور / بنظرية / داروين ، في تطور الحياة الطبيعية للكائنات البشرية، وتنسق هذه النظرية إلى أن العناصر المركبة في الحضارة الإنسانية، تنطوي باستمرار من الأشياء البسيطة إلى الأشياء المعقدة، وهذا ما ينسحب على تطور النظم الاجتماعية .

ويرتبط اسم / داروين / على الأقل في أذهان عامة المثقفين في العالم، بأنه الرجل الذي نادى بنظرية التطور متحدياً فكرة الخلق، وذهب في ذلك إلى حد القول بانحدار البشر من القردة العليا. ولكن الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك، حسب تعبير الاستاذ / كريستوفر بوكر / . فلم يكن داروين هو مؤسس تلك النظرية، إذ سبقه إليها عدد كبير من العلماء الطبيعيين الذين كانوا يرون أن إصوات الحياة المختلفة، تطورت كلها على شكل واحد بسيط، أي أن هذه الأشكال لم تخلق خلافاً مستقلاً ومتميزة كل منها عن الآخر.

وقد انتشرت هذه الأفكار قبل ظهور كتاب داروين عن " أصل الأنواع " بسبعين سنة على الأقل. وكان كل ما فعله / داروين ، هو أنه قام بتجميع تلك الأفكار والأراء المبعثرة والمنتاثرة، وتحليلها بطريقة منهجية، فيها قدر كبير من محاولة الفهم والتعلق. ومن هنا ساعد كتاب " أصل الأنواع " في توسيع فكرة التطور وتسويتها. ولكن الأهم من ذلك، هو أن الكتاب يقدم نظريّة متماسكة عن الطريقة التي حدث فيها التطور، ووضع في ذلك مبدأ الشهير عن " الانتخاب الطبيعي " الذي فسر به استمرار بعض الأنواع في الحياة ، واحتفاء بعضها الآخر في معركتها الكبرى وصراعها من أجل الحياة .

وعلى الرغم من أنه مبدأ بيولوجي في الأصل، إلا أنه كان مفيداً لأنثروبولوجيين. وفي ذلك يقول الأستاذ / الفريد كروبر / وهو من أكبر علماء الأنثروبولوجيا المعاصرین : " إن هناك نوعاً من عدم التناسب بين الإسهام المحدود الذي أسمهم به داروين في العلم، والذي ينحصر في وضع مبدأ الانتخاب الطبيعي وتجسيده، وبين كل ذلك التأثير الهائل الذي تركه تأسيس المبدأ البيولوجي على العلم الكلي ". فقد دفع هذا المبدأ علماء القرن التاسع عشر، إلى البحث عن أصول الأشياء. وظهرت بذلك كتابات كثيرة تتناول أصل اللغة وأصل الحضارة، وأصل المجتمع والعائلة والدين، وما إلى ذلك بالطريقة نفسها التي تناول بها داروين مشكلة أصل الأنواع. (أبو زيد، ٢٠٠١، ٢٣-٢٤)

ولذلك ركز العلماء التطوريون، على موضوعات معينة : كالدين والعائلة، والنسب، واعتبروا أن الحضارات البدائية المعاصرة، تمثل شواهد دالة على مرحلة التطور الاجتماعي التي مرت بها الحضارة الحالية المتقدمة.

ولكن ثمة صعوبات قابلتهم، في دراسة التطور في العصور القديمة جداً، ولا سيما عصور ما قبل التاريخ، فعمدوا إلى دراسة علم الآثار أو التخمين والافتراض من أجل إثبات نظريةNicholson . (1968, p.7)

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، استكمل الأنثروبولوجيون وضع العناصر الأساسية لعلم الأنثروبوجيا الاجتماعية، عندما قام بعضهم بتصنيف المجتمعات البشرية على أساس أبنيتها الاجتماعية، وليس على أساس ثقافاتها فحسب. وهذا ما أدى إلى تميز الأنثروبوجيا الاجتماعية عن الأنواع الأنثروبولوجية الأخرى، وأصبح موضوعها وبالتالي، يختص بالعلاقات الاجتماعية وليس بالظواهر الثقافية.

واستناداً إلى ذلك، امتد منهج دراسة الأنثروبوجيا إلى الدراسات الميدانية. واعتبرت الدراسة التي قام بها العالم الانكليزي / هادون / على منطقة مضائق (تورنليس) مع بعثة علمية، نقطة تحول أساسية في تاريخ الأنثروبوجيا الاجتماعية، حيث رسمت اثنين أساسيين : أولهما : النظر إلى الأنثروبوجيا الاجتماعية، على أنها علم يحتاج إلى تخصص كامل. وثانيهما: اعتماد الدراسة الميدانية منهجاً رئيسياً في هذا العلم.

ومع أن / مورغان و بواز / سبقا / هادون / في دراسة بعض قبائل الهندو الصينيين، وبعض قبائل الأسكيمو، فقد استطاع / هادون / أن يحدد أساسيات منهج الأنثروبوجيا الاجتماعية، ويجب بعض العلماء إلى ميدان هذا العلم الجديد، بعدما تخلوا عن اختصاصاتهم الأصلية وأصبحوا من أئمة

الأنثروبولوجيا الاجتماعية في القرن العشرين، من أمثال : العالم / ريفر/ الذي كان متخصصاً في علم النفس، والعالم / سليجمان / الذي كان متخصصاً في علم الأمراض. بل إن / هادون / نفسه، تخلّى عن تخصصه الأصلي في (الحيوانات البحرية) وتحول إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية . (لطفي، ١٩٧٩ ، ص ٩٦)

وهكذا، مثل القرن التاسع عشر نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وإن كانت صورتها غير ناضجة وتحتاج إلى الكثير من جهود العلماء ولفتره من الوقت ليست قصيرة، حيث بدأت عناصر صورتها تستكمل وتزدهر في نهاية هذا القرن والنصف الأول من القرن العشرين .

3-القرن العشرون :

وصلت الأنثروبولوجيا مع بداية القرن العشرين إلى مرحلة التخصص بدراسة البنى الاجتماعية للمجتمعات، ولا سيما المجتمعات القديمة، حيث ازدادت الدراسات الميدانية، وفي مقدمتها الدراسة التي قام بها الأنكليزي / رادكليف براون / على سكان خليج البنغال، والتي اعتبرت المحاولة الأولى لفحص النظريات الاجتماعية بالعودة إلى مجتمع يداني. وكذلك دراسة / مالينوفسكي / لسكان جزر (تروبيورياند) لمدة أربع سنوات، واستخدم فيها لغة آهالي هذه الجزر. فكان بذلك أول أنثروبولوجي يتمكن من فهم حياة الناس وعلاقتهم الاجتماعية، من خلال تتبع عاداتهم وتقاليدهم، وتحليل مدلولاتها الاجتماعية.

خلال الربع الأول من هذا القرن، عكف الباحثون الأنثروبولوجيون على جمع الوثائق التي يحتاجون إليها من أجل إثبات ظاهرة الاقتباس بين الثقافات المختلفة. ويلاحظ أن العامل التاريخي، من وجهة نظر تاريخ الطريقة الأنثروبولوجية، احتل مكان الصدارة في دراسة المجتمعات، حتى في المحاولات المبذولة لإثبات ظاهرة الانتشار الثقافي، الناجمة عن الاحتكاك بين الشعوب. ويعود ذلك إلى أن هؤلاء الباحثين، كانوا يدركون جيداً أهمية البيانات التاريخية في فهم العوامل الثقافية الدينامية. (لينتون، ١٩٦٧ ، ص ٢٥٩)

أما في الربع الثاني من القرن العشرين، فقد أصبحت لأنثروبولوجيا الاجتماعية فروع مستقلة تدرس في الجامعات الأوروبية، ولا سيما في الجامعات البريطانية .. وانشر تطبيق منهج الدراسة الميدانية نتيجة لتأثير علم / مالينوفسكي / الذي بدأ منذ عام ١٩٢٤ ، بتدريب الأنثروبولوجيين على القيام بالدراسات الميدانية.

وفي عام ١٩٣٧ ، أعاد / براون / تنظيم معهد الأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد، وتطور منهجه. وبفضل جهود / مالينوفسكي وبراون / وتلامذتها من ذوي الخبرة في الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية، أجريت دراسات متعددة على مجتمعات صغيرة في أفريقيا (دراسة نظم القرابة والطفوس والسياسة)، وأحدث المعهد الدولي الأفريقي في جامعة أكسفورد، تصدر عنه مجلة متخصصة في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

وتابعت الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراساتها المتقدمة، في النصف الثاني من القرن العشرين، مما أدى إلى اتساع هذه الدراسات وازدهارها، وبالتالي إلى التقارب بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية .. وتم اعتماد تطبيق المنهج التجاري بدلاً من المنهج المقارن، حيث يستند كل باحث أنثروبولوجي - في تطبيق المنهج التجاري - إلى نتائج دراسة باحث آخر لمجتمع معين، ويقوم بدوره بالتأكد من صحة هذه النتائج من خلال قيامه بدراسة مجتمعات أخرى. وبذلك، تصبح الفرضيات المتفق عليها مبادئاً عامة في نهاية الأمر، أو معارف متداولة في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية .. وهذا ما عزّز من علم الأنثروبولوجيا في العصر الحديث.

ثالثاً- أهداف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

تحديد نماذج عالية للأبنية الاجتماعية:

إن التوصل إلى نوع من التصنيفات والنماذج للأبنية الاجتماعية، يعد أمراً صعباً بالنظر إلى عدم اتفاق العلماء على هذه النماذج من جهة، ولعدم وجود مصطلحات عالمية لمفاهيم الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى المشكلة الأساسية، التي تتمثل في عدم وجود الدراسات الميدانية الشاملة للمجتمعات الإنسانية جميعها، على الرغم من محاولات الكثير من العلماء الوصول إلى ذلك الهدف.

فالإنسان وحده من بين المخلوقات - يتمتع بامكانية تطوير سلوكه المكتسب ونقله بالتعلم، وأن نظمه ومؤسساته الاجتماعية، تتصرف بالتنوع وبدرجة من التعقيد أكبر مما تتصرف به الأشكال الاجتماعية لأي نوع آخر من أنواع الحيوان.

ولذلك نجد أن المنطق المنطقي لما يجرى من أبحاث حول المجتمع، هو دراسة أنظمة اجتماعية معينة واعتبار كل منها وحدة متكاملة. ومما يسهل المشكلة بعض الشيء، اعتبار الأنظمة كيانات متميزة عن المجتمعات، إذ يمكننا ذلك من تجاهل المدى الواسع للاختلافات الفردية في التغيير عن نماذج النظام، ومن التركيز على النماذج نفسها وعلاقتها المتبادلة. بيد أن المشكلة تظل معلقة بما فيه الكفاية، وأول مهمة للباحث هي التتحقق من النماذج وطبيعتها .

إن الصورة التي يرسمها باحث النظام الاجتماعي كله، يتكون من عناصر يجمعها واحدة واحدة،

أي من النماذج الداخلية في تركيب النظام، ومن الملاحظات التي تجمع لديه عن تكيفها وعلاقتها المتباينة، كما تكشف له في اثناء ممارسة الناس الفعلية لها. ولا يستطيع العضو العادي في أي مجتمع، أن يساعد الباحث في هذا العمل، إذ ما من أحد يدرك أن النماذج التي تنظم التفاعلات الاجتماعية، تشكل نظاماً لا في حالة المجتمعات التي بلغت درجة عالية من التعقيد والتزمت، كالمجتمعات في الصين وببلاد الإغريق في العصور القديمة، وأوروبا الحديثة. (لينتون، ١٩٦٤، ص ٣٤٥-٣٤٦)

ولما كان الإنسان قادرًا على التفاهم مع أمثاله بواسطة أشكال اللغة الرمزية والمفاهيم، فهو وحده الذي استطاع أن يوجد أنواعاً لا تحصى من المبني الاجتماعي الأساسية كبنيان الأسرة. وإذا نظرنا إلى حياة الجماعة في أي نوع من أنواع ما دون الإنسان من الكائنات الحيوانية، وجدنا أن مبنيها الاجتماعية أكثر رتابة من المبني الإنسانية، وبالتالي يمكن توقعها لأن كل جيل من أجيالها يتعلم السلوك المشترك بين معاصريه جميعهم، بينما يبني الإنسان على تجارب كل من سبقه. (هرسكونفيتز، ١٩٧٤، ص ٣٢)

وقد أنفق العالم / رادكليف براون / ثالثين عاماً في الدراسة، للوصول إلى بعض النماذج العامة للأبنية الاجتماعية. وبفضل جهوده وجهود علماء آخرين، أصبح هناك اتفاق شبه عام على بعض النماذج الأساسية للبناء الاجتماعي، مثل: (العشيرة - القبيلة - الدولة - الأمة - المجتمع).)

واستطاع هؤلاء العلماء تحديد الأشكال الأسرية الرئيسية، في المجتمعات الإنسانية. وبعد ذلك خطوة هامة نحو الوصول إلى القوانين الاجتماعية، التي يترتب عليها ذلك التوزع الملحوظ في الأبنية الاجتماعية المختلفة، وما أطلق عليه اصطلاحاً : (الدراسات المورفولوجية).

٢- تحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعية :

تبعد أهمية استخدام المنهج الكلّي / المتكامل في الدراسات الأنثروبولوجية، في تحقيق ذلك الهدف الذي يتمثل في تحديد التأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية، التي تدخل في نطاق البناء الاجتماعي الواحد. ويهمّ العلماء اليوم، بهذا الهدف، إذ لا يوفّقون على افتصار الدراسة الأنثروبولوجية على الجانب الوصفي فحسب، وإنما لا بدّ من التحليل للكشف عن الوظائف الاجتماعية للنظم الاجتماعية، عن طريق تحديد التأثير المتبادل فيما بينها.

وقد عرضت أمثلة كثيرة عن هذا الموضوع، حيث يطلق العالم / براون / على الدراسة التي ترمي إلى تحقيق ذلك الهدف اصطلاحاً : (الدراسة الفيزيولوجية) تميّزاً لها عن الدراسات الخاصة بالهدف السابق (الدراسات المورفولوجية).

إن مشكلة حقيقة الأنظمة الاجتماعية، هي مشكلة فلسفية أكثر منها مشكلة عملية. والمهم في الأمر هو أنَّ مركب النماذج الاجتماعية التي تتكيّف بعضها مع بعض تكيّفاً متبدلاً وهو ما اصطلاح على تسميته بالنظام الاجتماعي – يتطور ويعمل بارتباط مستمر مع سائر عناصر الثقافة، وأنَّ النماذج يجب أن تتكيّف مع هذا النسق تماماً كما تتكيّف بعضها مع بعض. أمّا المجموع الكلّي للثقافة، فيجب أن يتكيّف بدوره أيضاً، مع البيئة الطبيعية للمجتمع، لأنَّ الإنسان قد يتطور وسائل كثيرة ومتعددة للسيطرة على البيئة واستغلالها، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يتحرر من أثرها.

ولذلك، يمكن القول: إنَّ كل نظام اجتماعي، هو جزء من وحدة متناسقة متكاملة، أوسع جداً في مداها من النظام نفسه، أمّا العناصر التي تتكون منها هذه الوحدة، فهي متشابكة ومترابطة ولا يمكن فهم النظام الاجتماعي، إلا إذا درس في ضوء علاقته بالوحدة المتناسقة الكبيرة، التي تضم عناصر أخرى تظل تفرض باستمرار حدوداً على نموه وعمله. (لينتون، ١٩٦٤، ص ٣٤٨)

وبذلك يكون على الباحث – من وجهة النظر الوظيفية – أن يأخذ في الحسبان عاملين أساسيين يلعبان دوراً تبادلياً وفاعلاً في هذا النظام الاجتماعي أو ذاك، وهما: النموذج الذي يعرفه الأفراد ويوثر في سلوكاتهم من جهة، والثقافة التي ينشأ عليه هؤلاء الأفراد، والتي تعنى بتلبية الحاجات الكلية للمجتمع من جهة أخرى، وذلك لأنَّ الأنظمة الاجتماعية لا يمكن أن تؤدي وظيفتها، إلا كجزء من المجموع الكلّي للثقافة.

٣- تحديد عمليات التغيير الاجتماعي:

تهدف الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، إلى تحديد خصائص التغيير الاجتماعي وعملياته، والتي تحدث في الأبنية الاجتماعية، سواء ذات المعدل السريع في التغيير أو المعدل المتوسط أو المعدل البطيء.

وقد لا حظ / براون / أنَّ الدراسات الخاصة بذلك الهدف، اهتمت بدراسة أثر الحروب الاستعمارية على النظام القبائلي في أفريقيا وأسيا. ولكنَّ التغيير الاجتماعي عملية معقدة، متعددة الجوانب ومتختلفة العوامل. ولذلك، فهي أعمق في دراستها من حيث الجمع بين عناصر حضارتين مختلفتين. فعملية التغيير أو التطور، تستلزم ظهور أشكال جديدة من الانماط والأبنية الاجتماعية، كما تستلزم أيضاً، الانتقال من الأشكال البسيطة إلى الأشكال المركبة. (وصفي، ١٩٩٥، ص ١٧٤)

فلكلَّ مجتمع طريقته الخاصة في الحياة، والتي يطلق عليها العلماء الأنثروبولوجيون مصطلح "الثقافة". ويعتبر مفهوم الثقافة من أهم الأدوات التي يتعامل معها الباحث الأنثروبولوجي. وكما هي الحال في الابحاث العلمية الأخرى، تتحصر الخطوة الأولى في جمع الحقائق عن الانماط الثقافية المختلفة، ويتطّلّب هذا من العالم الأنثropolجي، القيام بابحاث ميدانية في أماكن نائية، وإلى العمل في

أنواع مختلفة من المجتمعات. (لينتون، ١٩٨٦، ص ٢٥) وبما أنَّ الكائنات البشرية تعيش في مجتمعات (مجتمعات) وتتطور طرقها الخاصة في الحياة بما يتلاءم مع أوضاعها الخاصة وال العامة، فإنَّ الثقافة هنا دوراً كبيراً في عمليات التغيير الاجتماعي، الفكري والسلوكي.

ومن هنا يتعين على الدراسات الأنثروبولوجية أن تحدد عمليات التغيير الاجتماعي، بطريقة الكشف عن الأنماط والابنية الاجتماعية الجديدة، وكذلك تحديد كيفية تطور ظواهر الاجتماعية البسيطة، إلى ظواهر اجتماعية مركبة.. وهذا يتطلب الدراسات الميدانية المركزة، والمعمقة.

**

مصادر الفصل ومراجعة

- أبو زيد، حامد (٢٠٠١) الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي ٤، مجلة العربي، الكويت.
 - بريتشارد، إدوارد (١٩٧٥) الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ط ٥، ترجمة : أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية.
 - الجباوي، علي (١٩٩٦) الأنثروبولوجيا – علم الإنسنة، جامعة دمشق.
 - لطفي، عبد الحميد، (١٩٧٩) الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعرفة بمصر، القاهرة.
 - لينتون، رالف (١٩٦٤) دراسة الإنسان، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت .
 - لينتون، رالف (١٩٦٧) الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت .
 - هرسكوفيتز، ميليفل. ج (١٩٧٤) أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة : رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق.
 - وصفي، عاطف (١٩٧٧) الثقافة والشخصية، دار المعرفة بمصر.
- Nigholson , C (1968) Anthropology Development and Personality , 2 nd Ed , New York, Harper .